حفل وفاء النيل
في القاهرة العثمانية

د . سحر علي حنفي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد – كلية الآداب – جامعة القاهرة

اهتم الشعب المصري منذ أقدم العصور بتتبع فيضان النيل حتى أصبح وصول النيل إلى حد الوفاء عيدًا عندهم، ظهرت ملامحه واضحة خلال العصر العثماني، رغم عدم انتماء هذا العيد من الناحية الدينية للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود.

ووفقًا لتصنيف الأعياد المصرية المعاصرة يندرج هذا العيد ضمن الأعياد الوطنية، في الوقت الذي لم يدرك فيه السكان بمصر العثمانية معنى الوطنية أو القومية، بل كان معظمهم فلاحين مرتبطين بأراضيهم، يظلون طوال حياتهم في منطقة واحدة أو قرية واحدة لا يبرحونها إلا في حالات استثنائية، مثل حدوث مجاعة أو اضطهاد أو وباء، أما في غير تلك الحالات فلا يترك المصري المنطقة التي ولد بها إلا للضرورة القصوى. ورغم هذا اهتم المصري بجميع فئاته بهذا العيد. فما هي الأسباب التي دفعت المصريين للاهتمام بهذا العيد ؟ وما هي الدوافع التي جعلت سكان القاهرة يحتفلون به في جزيرة الروضة ؟ وما هي مظاهر الاحتفال به عند المصريين ؟ وما هي الأسباب التي دفعت الأتراك العثمانيين الذين أصبحوا حكامًا لمصر بدءًا من عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م إلى الاهتمام بهذا العيد ؟

هذه تساؤلات فرضت نفسها على بساط البحث، ولفتت نظر الباحثة عند قراءة متفرقات مختصرة عن الاحتفال بوفاء النيل عند المؤرخين المصريين المعاصرين للأحداث.

ومما يلفت الانتباه اهتمام الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر إبان الحكم العثماني بذكر التفاصيل الدقيقة لهذا الاحتفال، لأن مظاهر هذا الاحتفال أمر جديد استرعى انتباههم، ورغبوا في تسجيله، في الوقت الذي يعتبر فيضان النيل أمرًا اعتاده المؤرخون المصريون المعاصرون للأحداث، لهذا لم يهتموا بذكر تفاصيله.

ونظرًا لجدية وطرافة هذا الموضوع، وعدم تناوله من جانب الباحثين المتخصصين، ولأن ما كتب عنه حديثًا لا يتعدى مجرد سطور، لهذا وقع الاختيار على هذا الموضوع لعلة يضيف للمكتبة التاريخية جديدًا.

اهتم المصريون بتتبع ارتفاع النيل، لهذا شيدوا على طول مجراه مباني خاصة، كان الغرض منها قياس منسوبه وقت الفيضان، وتسجيله في سجلات توضح تغيرات حالة النيل اليومية والسنوية[1].

وخلال فترة زيادة منسوب الفيضان التي تصل إلى ما يقرب من المائة يوم [2]، ينتاب المصريين حالة من القلق المفعمة بالتفاؤل والأمل في أن يصل معدل الفيضان إلى صورته الطبيعية [3].

ويوضح كوبن Coppin أهمية هذا العيد عند المصريين، بقوله إنه (لم يشاهد أثناء إقامته في مصر احتفالاً أضخم ولا أكبر من الاحتفال بفيضان النيل وبخاصة يوم افتتاح الخليج)[4]، كما يشير إلى ذلك بينوس Binos بأنه (لا يستطيع نسيان ترقب المصريين لفيضان النيل والقلق حول منسوب الفيضان) [5].

---

(١) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر (التاريخ الطبيعي)، الجزء الثالث والثلاثون ترجمة منى زهير الشايب، القاهرة ٢٠٠٥، ص١٠٤.

(2) VERYARD,E: VOYAGES EN EGYPTE PENDANT LES ANNÉES 1678 - 1701, CAIRE 1981, P.72.

(٣) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر (مقياس النيل)، الجزء الثاني عشر، ترجمة منى زهير الشايب، القاهرة ٢٠٠٢، ص٢١٩.

(4) COPPIN, JEAN, LES VOYAGES EN EGYPT 1638 – 1646, CAIRE 1971, P.98.

(5) ABBÉ DE BINOS, M.: VOYAGE PAR L ITALIE, EN EGYPT AU MONT – LIBAN ET EN PALESTINE OU TERRE SAINTE, TOME SECOND, PARIS, P.10.

ويرجع اهتمام المصريين بتتبع معدل الفيضان إلى التنبؤ بالأوضاع الاقتصادية للعام التالي، هل سيكون عام رخاء ونماء في المحاصيل، أم سيكون عام قحط وفقر[1]. فوفقًا لمقدار الفيضان يمكن تحديد كمية الغلال والمحاصيل المختلفة التي سوف تحصل مصر عليها في العام التالي[2]. وبدون فيضان النيل تتحول الأراضي إلى صحراء [3]، فمياه النيل تعوض النقص في مياه الأمطار حيث إن الأمطار قليلة في الدلتا، ونادرة في الصعيد[4]، لهذا ينتظر المصريون مياه الفيضان لحرث الأرض وبذر البذور والزراعة دون الاهتمام بسقوط المطر من عدمه[5].

(1) BLUNT, HENRY: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNÉES 1634, 1635, 1636, CAIRE 1974, P.236.

؛ LICHTENSTEIN, H.L.VON: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNEES 1587 – 1588, CAIRE 1972, PP.124 – 125.

؛ الحسن بن محمد الوزان الزياتي: ليو الأفريقي، وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الرياض ١٩٧٩، ص ٥٨٨.

؛ عباس الطرابيلي: خطط الطرابيلي، أحياء القاهرة المحروسة، القاهرة ٢٠٠٣، ص١٤٧.

(2) BLUNT, HENRY: OP.CIT, P.32.

(3) SANDYS, GEORGE: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNEES 1611 ET 1612, CAIRE 1973, PP.34 – 35.

؛ DU MONR, LE SIEUR: NOUVEAU VOYAGE DU LEVANT, 1699, P.257.

(٤) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثالث والثلاثون، ص٢٨٥.

(٥) جوزيف بتسي (الحاج يوسف): رحلة جوزيف بتسي (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ١٩٩٥،

كما يقدم الفيضان لمصر أيضًا طبقة الطمي التي تكون في أول الأمر سوداء اللون، ثم يتحول لونها تدريجيًا إلى اللون البني الفاتح أو البني المخلوط بالاصفرار نتيجة لتأثرها بالهواء[1]، وهذا الطمي مليء بالمواد العضوية والأملاح المعدنية الطبيعية[2]. وبتحليل علماء الحملة الفرنسية لطمي النيل ثبت لديهم أن كل (١٠٠) جزء منه يحتوي على (١١) جزء ماء، (٩) أجزاء فحم، و(٦) أجزاء أوكسيد حديد، و(٤) أجزاء رمل، و(٤) أجزاء كربونات ماغنسيوم، و(٨) أجزاء كربونات جير، و(٤٨) جزء ألومنيوم[3]، وهذا يساعد على خصوبة التربة دون الحاجة إلى أسمدة[4]. وقد أدرك الفلاح المصري بذكائه الفطري أهمية طمي النيل لهذا استخدمه للأراضي البعيدة عن الفيضان، بمزج تربتها الرملية بطمي النيل لزيادة خصوبتها وإنتاجها[5]، ويلمح إلى ذلك دي توت De Tott بقوله (أجريت التحاليل على التربة

---

(١) لاديكاد إيجبسيين، العدد السابع، ضمن صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ – ١٨٠١، المجلد الأول، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧١، ص١٠٧.

(2) HANOTAUX, GABRIEL: HISTOIRE DE LA NATION EGYPTIENNE, TOME I, PARIS, P.31.

(٣) لاديكاد إيجبسيين: العدد السابع، ص١٠٧.

(4) GALLIPOLI, BERNARDINO AMICO: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNEES 1597 – 1601, CAIRE 1974, P.38.

٤ SHAW, STANFORD J.: THE FINANCIAL AND ADMINISTRATIVE ORGANIZATION AND DEVELOPMENT OF OTTOMAN EGYPT 1517 – 1798, PRINCETON, NEW JERSEY 1962, P.50.

(5) IRWIN, EYLES: A SERIES OF ADVENTURES IN THE COURSE OF A VOYAGE UP THE RED – SEA, ON THE COASTS OF ARABIA AND EGYPT, THE SECOND EDITION, LONDON, P.258.

٤ MORISON, ANTHOINE: LE VOYAGE EN EGYPTE 1697, CAIRE 1976, P.113.

١ SHAW, STANFORD J.: OPICIT, P.50.

المصرية، ولم يظهر بها ما يميزها عن غيرها من الأراضي إلا بعد اختلاطها بطمي النيل الذي يأتي مع الفيضان[1]. ولم يستخدم المصريون طمي النيل في تخصيب التربة فحسب، بل استخدموه أيضًا في صناعة الأواني الفخارية وأفران صناعة الزجاج[2].

كما يعتمد المصريون أيضًا على النيل في إمدادهم بالمياه العذبة، فمياه النيل شديدة الصفاء، صحية، نقية[3]، عذبة المذاق خصوصًا عندما يكون النيل مكتمل الفيضان[4]. وأخيرًا يأتي فيضان النيل خلال أشهر الصيف ليلطف من شدة الحرارة التي يصفها بيلون بأنها (سوف تحرق المصريين[5]).

ويختلف مقدار الفيضان من منطقة إلى أخرى في مصر[6]، حيث كان قياس منسوب الفيضان الطبيعي في مصر العليا يبلغ أربعًا وعشرين ذراعًا[7]

---

(1) DE TOTT, BARON: MEMOIRES DU BARON DE TOTT, QUATRIEME PARTIE,PARIS 1784, P.24.

(٢) لانيكاد إيجيبسيين: العدد السابع، ص١٠٧.

(3) DE TOTT, BARON: OP. CIT, P.19.

(٤) جون أنتيس: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٧٠ – ١٧٨٢)، ترجمة سيد أحمد علي الناصري، القاهرة ١٩٩٧، ص ص ١٠٣ – ١٠٤.

(5) BLUNT, HENRY: OP. CIT, P.238.

(6) WIET, GASTON: MEMOIRES SUR L EGYPTE ANNÉE 1791, LE CAIRE 1942, P.14.

(٧) الذراع يساوي سبعة وستين وخمسة وسبعين من مائة سنتيمترًا... انظر عارف العارف: تاريخ القدس، القاهرة ١٩٥١، ص٢١٠.

في حين نجده في رشيد ودمياط ذراعين[1]، أما في القاهرة، عاصمة الولاية، فالمعدل الكافي يحدث عند ستة عشر ذراعًا، وهذا يؤدي إلى ري الأرض، وسد حاجة مصر من مياه الشرب، والحصول على حصاد وفير، وجباية الضرائب كاملة، أما إذا وصل الفيضان إلى السبعة عشر ذراعًا فهو أكمل الفيضانات وأكثرها فائدة لأراضي مصر، ولكن عندما ترتفع مياه النهر أكثر من ذلك لتصل إلى ثمانية عشر ذراعًا فإنها تغرق كثيرًا من الأراضي. وإذا انخفض النيل إلى أقل من أربعة عشر ذراعًا فإن ذلك يؤدي إلى عدم القدرة على زراعة الأرض، وبالتالي ندرة الغذاء وارتفاع الأسعار. وإذا توقف الفيضان عند عشرة أذرع فإن مصر يصيبها القحط والمجاعة[2]. ووفقًا لمقدار الفيضان تحدد الإدارة العثمانية الضرائب المفروضة على الشعب المصري[3]، فيتم مسح الأراضي وقت نمو الزرع (أي بعد الفيضان) للتفريق بين المزروع منها وغير المزروع [4]، فإذا غمرت الأراضي بمياه الفيضان وظلت غير مزروعة، يبدأ تقصي المساحين لأسباب عدم زراعتها، وإذا ثبت أنها غير مزروعة بسبب إهمال الفلاحين للجسور وجرافة الأرض يُحمل الفلاحون نتيجة الضرر، وإذا كانت الأرض من الخواص السلطانية يعاقب

---

(٨) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص٢٥٣.

(١) نفس المصدر السابق، ص ص١٥٣ – ١٥٤.

(3) DE TOTT,, BARON: OP.CIT, P.20

؛ STRIPLING, GEORGE: THE OTTOMAN TURKS AND THE ARABS 1511 – 1574, URBANA 1942,P.74.

؛ SHAW, STANFORD J.: OP. CIT, P.72.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: دراسة في ضوابط قانون نامة مصر، ومدى تطبيقها مع النص الذي ترجمه د. خليل الساحلي أوغلو. الدراسة والنص، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العددان الأول والثاني ١٩٩٠، ص٢٧٢.

؛ SHAW, STANFORD J.: OP.CIT ; P.72.

على عدم زراعتها الكاشف. أما الأرض الشراقي وهي الأرض التي لم يغمرها الماء لعدم وصول النيل لها فيخصم حاصلها من الحاصل المقرر على القرية[1]، مثلما حدث عام ١٠٥١هـ/١٦٤١م[2]، ١١٠٦هـ/١٦٩٤-١٦٩٥م[3]، ١١١٦هـ/١٧٠٤م[4].

ويرجع تتبع المصريين لمقدار الفيضان إلى الخوف من انخفاض أو ارتفاع منسوب النيل عن المعدل المتوسط (١٦ – ١٧ ذراعًا)، فانخفاض منسوب النيل له أثره على الفلاحين، وربما يؤدي إلى اضطرابات أمنية حيث تتسلح بعض القرى لتستولي بالقوة من الخزان العمومي على المياه اللازمة لها، غير عابئة بمصالح جيرانها، فيصبح ري قرية بأكملها خاضعا لفتوجة معركة بين الفلاحين، كما يؤدي إلى هروب عائلات بأكملها إلى الصحراء خوفًا من تحميلهم ضرائب الأراضي الشراقي، عندئذ يعيشون في الصحراء

---

(٤) أحمد فؤاد متولي: قانون نامة مصر الذي أصدره السلطان القانوني لحكم مصر، القاهرة د.ت، ص ص ٦٧ – ٦٩.

(١) محمد مختار: التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية، بيروت د.ت، ص ١٠٨٧.

(٢) أحمد الدمرداش كتخدا عزبان: الدرة المصانة في أخبار الكنانة في أخبار ما وقع بمصر في دولة المماليك من العناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومائة وألف، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٩، ص١٧.

٤ مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع المرحوم حسن أغا عزبان الدمرداشي: تاريخ وقائع مصر المحروسة، تحقيق صلاح أحمد هريدي علي، الطبعة الثانية ٢٠٠٢، ص٨٤.

(٣) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٩٧، ص٥٧.

عيشة البدو ورعاة الغنم، ويخسرون كل شيء، ويحقدون على المالكين لكل شيء.(١)

كما أن انخفاض النيل له أثره أيضا على الملتزمين والباشا، فعجز الملتزمين عن أداء ما عليهم من المال الميري مثلما حدث عام ١٠٦٠ هـ/١٦٥٠ م (٢) يدفع الباشا إلى إكمال الخزينة السلطانية، وصرف مرتبات الجند وعرايات ثلاثمائة ألف من حملة البراءات السلطانية من الأئمة والخطباء والعلماء من ماله الخاص، وذلك خوفا من ثورة أصحاب المرتبات(٣)، ولكنه يُتهم في هذه الحالة بانه شؤم ويحبس، ويرسل المصريون إلى السلطان في استانبول مطالبين بعزله وتعيين بديلاً له، ويظل الباشا محبوسا حتى يصل الباشا الجديد. وخلال فترة حبس الباشا يتم اختيار أحد الأمراء المماليك كقائمقام، ويضغط القائمقام على الملتزمين لتحصيل ما عليهم من الضرائب، وإن عجزوا عن ذلك يتم سجنهم ومصادرة أموالهم وأملاكهم وبيعها من أجل إكمال المال الميري.(٤)

أما ارتفاع منسوب النيل عن الحد الطبيعي، مثلما حدث عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢١م(٥) فتظهر كوارثه بصفة خاصة على أراضي الوجه القبلي

---

(٤) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ٢٥٨.

(١) محمد مختار: المرجع السابق، ص ١٠٩٦.

(٢) أوليا جلبي: سياحتنامة مصر، ترجمة محمد على عوني، القاهرة ٢٠٠٥، ص ص٢٠٦ – ٢٠٧.

(٣) نفس المصدر السابق: ص ٤٠٨.

(٤) محمد بن أبي السرور الصديقي البكري: التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ٢٠٠٥، ص ١٤٠.

؛ جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، الجزء الأول، القاهرة ١٨٨٩، ص ٨٦.

؛ محمد مختار: المرجع السابق، ص ١٠٦٧.

سواء الزراعية منها أو غير الزراعية، حيث يؤدي إلى تلف المزروعات التي لم تحصد بعد[1]، كما يغرق المباني المقامة في مستوى سطح النهر، لهذا فضل سكان الكثير من القرى إقامة مبانيهم ومنازلهم فوق هضاب مرتفعة[2]، للابتعاد عن كوارث زيادة الفيضان ولإنقاذ الإنسان والحيوان.[3] أما أراضي الوجه البحري فنادرًا ما تتعرض للغرق، لأن الرياح تجرف الماء الزائد نحو البحر المتوسط[4]. كذلك يؤدي الارتفاع الزائد للنيل إلى اضطرابات أمنية مثلما يحدث عند انخفاضه، حيث يستخدم الفلاحون السلاح لقطع السدود والتخلص من الماء الزائد الذي يخشى من بقائه على الأراضي، حتى لو كان قطع هذه السدود على حساب القرى المجاورة.[5]

كما يخشى المصريون من زيادة المياه على الأراضي لأنها تؤدي إلى تفشي الأمراض وبخاصة الطاعون [6] بعد انحسار الفيضان لما يخلفه الماء الزائد من القاذورات والغازات والأبخرة السامة. وأخيرًا فإن زيادة مياه النيل تؤدي إلى استحالة زراعة الأرض، وبالتالي قلة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها في العام التالي[7].

---

(1) DE TOTT, BARON: OP.CIT, P. 25

؛ SANDYS, GEORGE: OP. CIT, P. 36

(2) HANOTAUX GABRIEL: OP. CIT, P. 39

(3) HARANT, CHRISTOPHE: VOYAGE EN EGYPT 1598, CAIRE 1972, P. 241

(4) DE TOTT, BARON: OP. CIT, P. 26.

(٤) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ٢٥٨.

(6) FORESIEN, JEAN PALERNE: VOYAGE EN EGYPTE 1581, CAIRE 1971, P. 49.

(٦) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ص ١٠٩، ١٥٤.

ويتم قياس منسوب فيضان النيل بالقاهرة في جزيرة الروضة، فهناك جامع فسيح على حافة النهر يقع في طرفه بناء صغير أقيمت في وسطه حفره مربعة مغطاة عمقها ثلاثون ذراعا، وتتصل هذه الحفرة بقناة تتصل بمجرى النيل، وفي وسط الحفرة عمود مدرج ومقسم إلى عدد مساو من الأذرع لعمق الحفرة، كما يقسم كل ذراع إلى أربعة وعشرين إصبعا[1]. وعندما يأخذ النيل في الزيادة يدخل الماء في القناة ويصل إلى الحفرة فيزداد تدريجيا، وعندئذ يمكن قياسه.[2]

وقد كان يعهد بإدارة المقياس وحراسته لأحد الشيوخ الذي يحمل لقب قاضي، وهو لقب شرفي[3]، ومهمته تسجيل ارتفاع مياه النهر، وملاحظة درجات ارتفاعه يومًا بيوم منذ بداية الفيضان، ويتم تسجيل هذا الارتفاع بحبر الزعفران[4] في سجل معد خصيصًا لهذا الغرض، وكان على هذا القاضي أن يبلغ الباشا عن مقدار الفيضان كل يوم، ويأمر بإعلانه في شوارع القاهرة.[5]

---

(١) كارستن نيبور: رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ١٧٦١ – ١٧٦٧، الجزء الأول، رحلة إلى مصر ١٧٦١ – ١٧٦٢، ترجمة مصطفى ماهر، د. ت، ص ٢٢٨.

(٢) الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٨٩.

: SAVARY, M.: LETTERS ON EGYPT, VOL. I, SECOND EDITION, LONDON, PP. 114 – 115.

: VILLAMONT, LE SEIGNEUR: VOYAGES EGYPTE DES ANNÉES 1589, 1590, 1591, CAIRE 1971, P. 195.

(3) VERYARD, E: OP. CIT, P. 71.

(٤) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤١١.

(٥) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ١٤٥.

وكانت إدارة المقياس والإشراف عليه يتولاها الأقباط، واعتبارًا من عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١م تولى هذه المهمة عبد الله بن عبد السلام بن أبي الرداد مؤذن جامع عمرو بن العاص، وقد رشحه لهذه المهمة القاضي بكار بن قتيبة. وظلت هذه الوظيفة يتوارثها أبناؤه حتى العصر العثماني[1].

ويمر الاحتفال بوفاء النيل في القاهرة بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تطهير المقياس: قبيل نزول النقطة[2] بمدة كافية يستأذن الباشجاويش[3] الباشا من أجل تطهير المقياس لأن هذا العمل من اختصاص تلك الفرقة[4]. وكان الهدف من تطهير القناة والحفرة إزالة الطمي

---

(٦) عباس الطرابيلي: المرجع السابق، ص ١٤٧.

(١) لم تحدد المصادر المعاصرة بداية تطهير المقياس، ولكن نزول النقطة يتم بين يومي ١٧ و١٨ يونيه، ويستغرق التطهير ما يقرب من عشرين يومًا سابقة على نزول النقطة، إلى جانب حفل تطهير المقياس الذي يستغرق سبعة أيام تسبق أيضا نزول النقطة، لهذا يمكن القول بأن تطهير المقياس يتم قبيل نزول النقطة بشهر كامل أي في منتصف شهر مايو.

(٢) الجاويش: من الكلمة التركية جاووش CAVUS وهي مشتقة من المقطع التركي جاو CAV بمعنى الصياح والنداء. والجاووش منصب عسكري، فلكل هيئة كبيرة جاويشيتها. وقد أنشيء أوجاق الجاويشية في مصر عام ١٥٢٤م من عدد من المماليك، ومهمة هذا الأوجاق حمل الأوامر والفرمانات من الباشا. ولا يزيد عدد هذه الفرقة عن أربعين شخصًا يعملون جميعا في الديوان وأمورهم مفوضة إلى الوالي، وإذا خلا مكان في جماعة الجاويشية يشغله الباشا بواحد من فرقتي الجمليان أو التفكجية... لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف د. ت، ص ص ٦٢ – ٦٤، ١٩٥ – ١٩٦.

(٣) أولياء جلبي: المصدر السابق، ص ٤٠٣.

الذي يملأ القناة[1] لسهولة معرفة مقدار الفيضان وقياسه بالذراع. وكان هناك مبلغ ثابت لإتمام هذا العمل مقداره مائة ألف بارة[2].

وعقب حصول الأغا على الإذن من الباشا يعسكر بالقرب من المقياس لفترة تتراوح ما بين خمسة عشر إلى عشرين يوما[3]، ويعتمد في هذا العمل على ما يقرب من خمسة آلاف عامل[1]، كان أجرهم اليومي زمن

---

(1) BROWNE, W.G: TRAVELS IN AFRICA, EGYPT AND SYRIA FROM THE YEAR 1792 TO 1798, LONDON. P. 63.

(٥) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ص ١٧٨، ١٩٤، ٢٧٨، ٢٩٤.

والبارة: نقد تركي، ترجع أقدم إشارة إليه عام ١٥٨٣م، وقد ضربت أولاً من الفضة بقيمة قدرها أربع آقجات، ثم أصبحت ١: ٤٠ من القرش، وكان للبارة عدة مترادفات أهمها الفضة، نصف فضة، مديني، الديواني، الميدي، المؤيدي، المصرية ومن الكلمة الأخيرة جاءت كلمة مصاري المتداولة في الشام والتي يقصد بها الفضة أو البارة. لمزيد من التفاصيل أنظر...

شابرول: دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٧٠.

- صامويل برنار: الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الثالث، الموازين والنقود، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٠، ص ٧٧
- عبد الرحمن فهمي: النقود المتداولة أيام الجبرتي، ضمن بحوث عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث، القاهرة ١٩٧٦، ص ٥٧٣
- سليم عرفات المبيض: النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية والأجنبية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام ١٩٤٦، القاهرة ١٩٨٩ ص ٢٢٥.

(١) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ٢٩٥.

في حين أشار أوليا جلبي أن مدة تطهير المقياس تتراوح ما بين أربعين أو خمسين يومًا انظر أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤١٤.

(٢) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ٤٠٣، ٤١٤.

الجملة الفرنسية من ١٤: ١٨ بارة للرجال ومن ٨: ١٠ بارات للنساء والأطفال، وكان يدفع لهم الأتراك والمماليك أقل من ذلك، وأحيانا يفرض العمل بلا مقابل[١].

وبعد إتمام عملية تطهير المقياس يسند إلى أغا الإنكشارية مهمة إقامة حفل مدته سبعة أيام، ينفق عليه عشرة أكياس مصرية من المال[٢] يدعو إليه أغا الإنكشارية كل يوم بلوكا من البلوكات السبعة[٣]، وفي اليوم السابع – ولابد أن يكون هذا اليوم يوم خميس – يحضر الباشا، ويخلع الباشا بعد الحفل على أغوات البلوكات السبعة وأغا الإنكشارية الخلع الفاخرة، ويعطي مائة قرش[٤] لخدم الباشجاويش، ثم يركب الباشا من المقياس السفينة الخاصة به

---

(٣) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ٢٩٥.

(١) للكيس مقداره ٢٥,٠٠٠ بارة انظر محكمة دمياط الشرعية، س ٢٣٣، ص ٢٧٦، م٣٨٦ (١٩ ذو الحجة ١١٦٠ هـ / ٢٢ ديسمبر ١٧٤٧م).

(٢) قسمت العساكر العثمانية التي تركت في مصر بعد عودة السلطان سليم أربعة بلوكات، ثم زادها ابنه السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٢٤ م بلوكين فصارت ستة ثم صارت سنة ١٥٥٤ م سبعة بلوكات، وهذه البلوكات السبعة هي الانكشارية، العزب، الجملية، التفكجية، الجراكسة، الجاويشية، المتفرقة لمزيد من التفاصيل انظر أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ص ص ١٩٥ – ١٩٦.

(٣) القرش: وحدة فضية مأخوذة من اللفظة الألمانية GROSCHEN وهي عن اللاتينية GROSSOS بمعنى سميك، وهي تعني البياستر PIASTRE أي النقد الإسباني الفضة، ومن القروش العثمانية نوعان القرش الأسدي: ظهر في الدولة العثمانية منذ عهد السلطان سليمان القانوني، وسمي بهذا الاسم لوجود صورة الأسد مطبوعة على القرش ومعه الشمس كشعار أستخدمه الفرس والسلاجقة منذ القدم، فأخذ العثمانيون التسمية على الرغم من عدم وجود الأسد على نقدهم، وهناك قول بأن العثمانيين قد-

المسماة العقبة، ويسير بها مع التيار إلى قصر العيني، ويقوم في المقياس وليمة كبيرة يحضرها كبار ضباط الإنكشارية، وفي عصر نفس اليوم يحضر علماء مصر وليمة الباشا، وتطلق القذائف النارية، ويحيي العلماء تلك الليلة (ليلة الجمعة) حتى الصباح بتلاوة القرآن وقصة المولد النبوي الشريف. وطوال المساء يقدم لهم الباشجاويش المشروبات ويحرق العود المعاوردي. وفي صباح يوم الجمعة يقام الإفطار، ويذهب العلماء إلى حوض المقياس، ويدعو شيخ المقياس بوصول الفيضان، والمسلمون جميعًا يؤمنون ثم ينصرف كل إلى عمله[1].

المرحلة الثانية: مولد المقياس (عيد النقطة): تبدأ بوادر الفيضان في ليلة السابع عشر أو الثامن عشر من شهر يونيه وتسمى تلك الليلة بليلة النقطة[2]،

=أخذوه عن العملة الأسدية الهولندية السائدة في الممالك العثمانية، وكانت قيمته ٤٠ نصف فضة.

الفرش العددي: ضرب منذ عهد السلطان سليمان الثاني (١٠٩٩ - ١١٠٢ هـ/ ١٦٨٧ - ١٦٩١ م) وقيمته ثلاثون نصف فضة... لمزيد من التفاصيل انظر.

سليم عرفات المبيض: المرجع السابق، ص ٢٣١ وعبد الرحمن فهمي: المرجع السابق ص ٥٧٥.

؛ محكمة الإسكندرية، س ٦٥، ص ٢٧٣، م ٤٩٥ (١ محرم ١١٣١ هـ/ ٢٤ نوفمبر ١٧١٨ م)، س٦٩، ص ٢١٧، م ٣٣٨ (جماد أول ١١٤١ / ديسمبر ١٧٢٨ م).

؛ محكمة الباب العالي، س ٢٠٥، ص٢٣٠، م٤٩١ (١٧ صفر ١١٣٥ هـ/٢٧ نوفمبر١٧٢٢م).

، س ٣١٩، ص ٤٥٦، م ٩٨٤ (٢ شعبان ١٢١١ هـ / ٣١ يناير ١٧٩٧ م).

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٢) جون أنتيس: المصدر السابق، ص ٩٤.

؛ إدوارد وليم لين: المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلي طاهر نور، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٦٣.

؛ HANOTAUX, GABRIEL: OP, CIT, P. 29.

إذ يعتقد أن نقطة عجيبة تسقط حينئذ في النيل، وتسبب ارتفاعه[1]. ويتعرف المصريون على نزول النقطة بتغير فجائي في ماء المقياس من ماء رقيق صافي إلى ماء أحمر مشبع بالطمي[2]، يطلق عليه موبه أو ماء أحمر Moye or Ma Achmar[3].

ويرتبط نزول النقطة بالكثير من المعتقدات عند المصريين، إذ يعتقد البعض أن هذه النقطة دمعة من دموع إيزيس التي تبكيها على أوزوريس، وهي دمعة خصبة مباركة تسبب ذلك الفيضان العظيم[4]، في حين يربط الأقباط بين نزول النقطة وعيد رئيس الملائكة ميخائيل[5]، فهذه النقطة في عيونهم ما هي إلا ملائكة أرسلتها العناية الإلهية لتخليص البلاد من كل الأمراض[6] وتنقية الهواء حتى تتنفس الكائنات[7]، لهذا يقوم المصريون، وبخاصة النساء منهم، بعمل غريب وهو أخذ كمية معينة من ماء النيل وخلطها بالدقيق، ثم يوزن هذا الخليط ويترك طوال الليل، ثم يوزن مرة أخرى في صباح اليوم التالي، فيجدون أن الخليط قد زاد وزنه، ثم يستخدم

---

(٣) ميكل وتتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، القاهرة ٢٠٠١، ص ٣٥٦.

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٠٥.

(٢) جون أنتيس: المصدر السابق، ص ١٠٣.

(4) HANOTAUX, GABRIEL: OP. CIT, P. 29

(٤) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ١٥٣.

جون أنتيس: المصدر السابق، ص ٩٤.

SONNINI, C.S: VOYAGE DANS LA HAUTE ET BASE. EGYPTE, TOME II, PARIS, PP. 14-15.

(6) GALLIPOLI, BERNARDINO AMICO: OP.CIT, 36.

(7) SONNINI, C.S: OP. CIT, TOME II, PP. 14-15.

هذا الخليط كخميرة لعجائن أخرى، تصنع منها المخبوزات المختلفة، اعتقادًا بأن هذه المخبوزات هي دواء وعلاج لكل الأمراض [1] التي يمكن أن تصيب الإنسان ؛ لأن الرطوبة والندى المقدس نزلا عليها [2]. كما اتبع المصريون عادة غريبة خلال تلك الفترة، حيث كانوا يصنعون فوق أسطح المنازل بعد الغروب أقراصًا من الطين بعدد سكان المنزل، يعمل كل واحد قرصه، وفي فجر اليوم التالي ينظرون إلى الأقراص، ويستدلون من مدى تشقق القرص عن طول حياة صاحب القرص أو قصر عمره خلال العام التالي. [3]

وفي يوم السابع عشر من يونيه يبلغ الباشا بأن النقطة ستنزل في تلك الليلة، فيأمر الباشا بإقامة وليمة لمدة يومين تسمى مولد المقياس [4]، يدعي إليها العلماء والمشايخ ورؤساء البلوكات السبعة وكتخدا الجاويشية والقائمون على خدمة المقياس، ويشرف رئيس التراجمة على الوليمة في حالة عدم حضور الباشا، ويضاء المقياس في تلك الليلة بآلاف الشموع الكافورية، كما يحييها العلماء بقصة المولد النبوي، ويظلون على ذلك حتى نزول النقطة وتغير لون ماء حوض المقياس. وعقب نزول النقطة يتجمع العلماء حول حوض المقياس يحمدون الله على نعمته ويختمون مائتي ختمة شريفة، ثم يدعو الشيخ السادات[5] دعاءً مؤثرًا، ويذبح رئيس قصر الباشا مائتي أضحية

(1) HANOTAUX, GABRIEL: OP. CIT, P. 29.
(2) GALLIPOLI, BERNARDINO AMICO: OP. CIT. P 36.
(١) إدوارد وليم لين: المصدر السابق، ص ١٦٣.
(٢) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٥٩٣.
(٣) قدم الشيخ السادات إلى مصر من بلاد المغرب، ويتحدر من نسل علي بن أبي طالب. وقد عاش منعزلا عن الناس، وعندما امتنع النيل في أحد الأعوام عن الفيضان، فحدث قحط وغلاء شديدين، واضطرب المصريون ولجأوا إلى السيد ملتمسين دعاءه،

يوزعها على العلماء، ويخلع على بعض المشايخ والشيخ السادات خلعا من الصوف الأبيض، ويسجل مندوب المحكمة الشرعية ميعاد نزول النقطة، ثم يذهب شيخ المنادين ليبشر الباشا بنزولها، فيخلع عليه الباشا خلعة بيضاء ويعطيه سبعين أو ثمانين دينارا[1]، أما باقي سكان القاهرة فيتتبعون نزول النقطة بقضاء الليل على ضفاف النيل، أو في منازل أصدقائهم القريبة من النهر.[2]

فما أن رفع يديه بالدعاء حتى فاض النيل، ولا يزال أولاد السادات يحضرون إلى المقياس= =متضرعين إلى الله تعالى بالدعاء والثناء، وتقام الوليمة لأجلهم. وقد أصبح الشيخ السادات يشرف أواخر القرن الثامن عشر على ٥٢ وقفا إلى جانب ما يتقاضاه من الأوقاف المرصودة على الحرمين الشرفين وقدره ١٤٨,٦٣٥ بارة، كما كان يتقاض راتبا من الخزانة المصرية قدره ١٠٢٠ عثمانيا يوميا و ١٢٠ جرابة قمح سنوية (١٢٠ إردبا) كما كان يحصل على نصيبه من ضريبة الجوالي التي كانت تفرض على أهل الذمة من الأقباط واليهود، لهذا كان الشيخ السادات ذا عزوة وثروة كبيرة، وله تابعون ومريدون... لمزيد من التفاصيل انظر أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٠٥.

٤ أحمد باشا الجزار: نظامنامة مصر، عن كيفية إعادة مصر إلى سلطة الدولة العثمانية عام ١٧٨٥، ضمن كتاب عبد الوهاب بكر: الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٢، ص ١٧٧.

٤ شفيق غربال: مصر عند مفرق الطرق (١٧٩٨ – ١٨٠١)، المقالة الأولى في ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية، كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامة في عهد الحملة الفرنسية، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، المجلد الرابع، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٦، ص ٢٥.

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٠٥.

(٢) إدوارد وليم لين: المصدر السابق، ص ١٦٣.

أما المرحلة الثالثة: فتح السد (شق الخليج): عقب نزول النقطة يبدأ تتبع زيادة النيل في المقياس، فينظر شيخ المقياس كل صباح للعمود الرخامي في حوض المقياس[1]، ويسجل مقدار الزيادة في حجة بحير من الزعفران، ثم يختم هذا التقرير بختمه ويحمل إلى الباشا، فيدخل حامل الحجة إلى الباشا دون أن يمنعه أحد، ويقول (السلام عليكم يا وكيل السلطان الوالي، حفظك الله وسلمك الله، زاد النيل المبارك في هذه الليلة بأمر الله تعالى) ويذكر الزيادة ويأخذ من الباشا قطعة ذهبية.[2]

وتبدأ المناداة في شوارع القاهرة عن مقدار الفيضان[3] بدءًا من الثالث من يوليه، وتستمر لمدة أربعة وثمانين يومًا[4]. ويعاون شيخ المنادين ثلاثمائة وستون رجلاً يوزعهم على مدينة القاهرة على أن يكون كل واحد منهم مسئولاً عن حي أو حيين، وكل مناد ينادي في حدوده لا يتجاوزها ؛ لأن على كل منزل عادة يطلق عليها (الحالية) يأخذها المنادي يوميًا، لذا لا يذهب إليه غيره حتى لا يتحير صاحب المنزل لمن يعطي (الحالية).[5]

---

(1) SAVARY, M.: OP. CIT, PP. 114 – 115.

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ٤٠٥ – ٤٠٦.

(3) VILLAMONT LE SEIGNEUR: OP. CIT, P. 195.
LICHTENSTEIN, H. L VON: OP. CIT, P. 124

؛ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم أحمد عبد المجيد هريدي، القاهرة ١٩٨٦، ص ٢٣٩.

(٣) أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الطبقة الثانية، القاهرة ١٩٩٤، ص ٣٤٠.

؛ إدوارد وليم لين: المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٤) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٠٦.

والمنادون رجال ذوو وجوه سمحة، بأيديهم عصى، ويحملون أعلامًا سوداء ورؤوسهم مزينة بأكاليل من الزهور[1]، ويرتدون ملابس موحدة[2]، ويتبع كل منادٍ ثلاثة أو أربعة غلمان[3]، يلفون أعناقهم بشيلان صفراء وخضراء ووردية، ويحملون في أيديهم سلات[4] صفراء اللون[5].

وكان المنادون الرادين يحصلون الأموال من الأعيان والأمراء وولي مصر، في حين كان الغلمان يحصلون أجرهم من كل صاحب دار في الحي وفقًا لما يجود به صاحب المنزل[6]، والمنادون لا يستطيعون الذهاب إلى أية منطقة أو حي إلا بعد دفع عوائد لشيخ المنادين، ويأخذون منه إيصالا بذلك[7].

وكانت طريقة المناداة، أن يبدأ المنادي وصبية نداءهم اليومي بالصلاة على النبي، والتسبيح بحمد الله وذكر نعمه وفضائله تعالى، ثم يذكر المنادي اسم صاحب المنزل الذي يمر عليه ويدعو له بأن (يفيض الله عليه بخيره العميم، كما فاض النيل على البلاد)، ثم يذكر المنادي (مقدار الفيضان خمسة أو ستة قراريط إلخ)، ثم يقول الصبي الذي يتبع المنادي (صلوا على محمد) وهذا معناه إنهاء دور المنادي، عندئذ يعطي أهل المنزل المنادي كسرة من الخبز، وهذه عادة شائعة في الطبقة الوسطى، غير أن أغلب الناس

(1) IRWIN, EYLES: OP. CIT, P. 281.
(2) GALLIPOLI, BERNARDINO AMICO: OP. CIT, P. 37.
(3) DE TOTT, BARON: OP. CIT, P. 20.
(4) MONCONYS, BALTHASAR: VOYAGE EN EGYPTE 1646 – 1647, CAIRE 1973, P. 153.
(5) SANDYS, GEORGE: OP. CIT, P. 39.

؛ الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٨٩.

(6) LICHTENSTEIN, H. L. VON: OP. CIT, P. 124.

(٥) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٠٧.

لا يعطونه شيئا إلا قبيل فتح السد بيومين، حيث يخير المنادي إعلانه بقوله (البحر فاض وزاد، وده شيء من المنة للسدة، وتعيشوا لكل عام) عندئذ يبدأ أهالي المنازل بإعطائه عطية نقدية[1]. وفي نهاية الأربعة وثمانين يومًا، ينادي المنادون مناداة جديدة حيث يقولون (استوى الماء والخشبة) أي بلغ الماء الجسر الخشبي الموضوع بجانب العمود الرخامي[2].

على أنه تجب الإشارة إلى عدم صحة مقدار الفيضان المعلن عنه أحيانا[3]، فربما يعلن شيخ المقياس عن ارتفاع منسوب النيل على الرغم من أنه ظل راكدًا كما حدث عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م [4]، وربما يعلن شيخ المقياس إلى وصول ارتفاع النيل لستة عشر ذراعًا، على الرغم من أنه لم يرتفع بالفعل إلا بمقدار أربعة عشر فقط [5]، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبة الإدارة العثمانية في الإعلان عن وصول الفيضان إلى المنسوب الطبيعي لتحصيل الملتزمين والفلاحين دفع ما عليهم من الضرائب، أو ربما لتهدئة الشعب المصري الذي يظل قلقًا حتى يصل الفيضان إلى ستة عشر ذراعًا، على الرغم أن هذه النسبة أصبحت بعد مرور عدة قرون على إنشاء المقياس لا تحقق الوفرة، وأصبحت قيمة اسمية فقط[6] ؛ لأنه إذا علم السكان

---

(٦) إدوارد وليم لين: المصدر السابق، ص ص ١٦٥ – ١٦٦.

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٠٧.

(3) BROWNE, W. G: OP. CIT, P. 67.

(٣) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٥٠.

(٤) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ص ٢٧٩ – ٢٨٠.

(٥) نتيجة لحدوث تغيرات متتالية بأرضية حارة المقياس لتعلية التربة بمقدار ست عشر بوصة لكل قرن... انظر علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثالث والثلاثون ص ٣٤٣.

بانخفاض منسوب النيل يسرع كل شخص إلى عمل خزين كاف من المواد الغذائية لمدة سنة كاملة، مما يسبب الاضطراب في النظام العام وارتفاع الأسعار[1].

وكان شيخ المقياس يخفي أحياناً عن الباشا ذاته وصول الفيضان إلى معدل الستة عشر ذراعًا ؛ لأن وصول الفيضان إلى الستة عشر ذراعًا يتم إعلام السلطان به مما يجعله يطالب بالخراج كاملاً، وربما ينخفض النيل فجأة عن الستة عشر ذراعًا عندئذ سيصر السلطان على تحصيل الخراج بالكامل، لهذا يخفي شيخ المقياس عن الباشا وصول النيل إلى معدل الستة عشر ذراعا حتى يستقر الفيضان[2].

وعلى الرغم من أنه من حق الباشا دخول المقياس لمعرفة المنسوب الحقيقي للفيضان، غير أنه أحياناً كان يغض النظر عن النسبة الحقيقة للفيضان[3]، حتى لا يطالبه السلطان بالضرائب، وذلك في مقابل الهبات التي يقدمها الأمراء المماليك له، هذا من ناحية[4]، ومن ناحية أخرى، ربما يتعمد الباشا غض الطرف عن معرفة مقدار الفيضان الحقيقي حتى لا يتهم من قبل المصريين بأنه شؤم فيطالبون بعزله، وأيضا كان المنادون يخفون أحيانا جزءًا من الزيادة حتى يكون لديهم شيء احتياطي يقولونه في اليوم التالي، إذا ما حدث وهبط ارتفاع النهر، وهو ما كان يحدث من حين لآخر[5].

---

(٦) نفس المصدر: الجزء الثاني عشر، ص ٢٨١.

(١) نفس المصدر: الجزء الثاني عشر، ص ص ٢٨٢ – ٢٨٣.

(٢) جون أنتيس: المصدر السابق، ص ٩٧.

(٣) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ٢٨٣.

(٤) جون أنتيس: المصدر السابق، ص ٩٥.

أما إذا استمر انخفاض منسوب النيل يبلغ المنادون هذا الأمر للشعب، عندئذ يسرع الناس بالدعاء وقراءة القرآن والاجتماع على جبل الجيوشي [1] وجامع عمرو بن العاص وسبيل علي باشا وغيرها من الأماكن التي يعتقد الناس أنه عندها يجاب الدعاء، كما يصلون صلاة الاستسقاء مثلما حدث عام ٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠م[2]، وعام ١١١٧ هـ/ ١٧٠٥م[3] ويبيت الشيخ السادات الوفائي في هذه الحالة في المقياس وينلو حزبه إلى أن يحل الوفاء، مثلما حدث عام ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤م[4]، ويحذر الباشا من ارتكاب المعاصي في هذا الوقت، فعندما توقف النيل عن الزيادة في رجب ٩٢٤ هـ / ١٥١٨م أمر خاير بك بفك خيام البغاء بالروضة، وعدم ارتكاب المعاصي، ومن يفعل ذلك يشنق على باب داره[5]، كما قام بتوزيع الصدقات وإطلاق من في السجون، وزيارة مقابر الصالحين للدعاء، وفعل من وجوه البر والصدقات تقربًا وابتهالاً لقبول الله الدعوة بزيادة منسوب مياه الفيضان[6].

أما إذا زاد الفيضان عن المعدل الطبيعي يسرع المنادون بتحذير السكان لأن كل الأماكن المنخفضة في القاهرة ستتعرض لخطر الغرق[7]،

---

(٥) أمين سامي: تقويم النيل، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٢٨، ص ٦٩.

(١) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: المصدر السابق، ص ٣٤٨.

(٢) أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري: المصدر السابق، ص ١٥٨.

؛ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الأول، ص ٥٧.

(٣) محمد مختار: المرجع السابق، ص ١١٤٢.

(٤) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٦٧.

؛ أمين سامي: المرجع السابق، ص ٩.

(٥) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: المصدر السابق، ص ص ٣٤٩ – ٣٥٠.

(٦) الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٨٩.

؛ VILLAMONT, LE SEIGNEUR: OP. CIT, P. 287.

ويتغير إعلان المنادين بقولهم (أيها الناس اتقوا الله من جبل إلى جبل) مثلما حدث عام ١٠٩١هـ / ١٦٨٠م[١]، وهذا يعني للناس بدون الإعلان المباشر ارتفاع غير طبيعي في مياه النيل، وأن الماء سيصل إلى الجبل في ضفة النيل وإلى الجبل الأخر على الضفة الأخرى[٢]، ويقصد بالجبل جبال الهرمين غربي القاهرة (الأهرامات)، فإذا فاض النيل حتى سفحها استغاث المصريون قائلين (الحمد لله كفى يارب كفى)، أما إذا وصل الفيضان إلى سفح الجبل يقول الناس (اللهم عافنا)[٣] عندئذ يستبد الخوف بالناس فيخرج الباشا والعلماء والأشراف إلى سبيل على باشا للدعاء مثلما حدث عام ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م[٤]، ويؤدون الصلوات ويعطون الصدقات طلبا لانحسار مياه النيل[٥].

وعقب نزول النقطة يبدأ سكان القاهرة في الاستعداد للاحتفال النهائي باستئجار البيوت بمصر القديمة التي يتراوح إيجارها خلال مدة الاحتفال – التي تستغرق أسبوعا – ما بين مائة قرش إلى خمسمائة قرش، كما يدفعون مقدم تأجير السفن التي تتوقف أسعار تأجيرها على حسب إمكانيات كل سفينة، فإذا كانت سفينة صغيرة تدفع قيمة إيجارها مائة قرش، أما إذا كانت سفينة كبيرة تدفع قيمة تأجيرها مائتي قرش، ويبدأ سكان مصر القديمة بنقش الشبابيك والمشربيات، ورش الجدران الداخلية بالجير الأبيض[٦].

---

(٧) محمد مختار: المرجع السابق، ص ١١٢٧.

(١) الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٨٩.

(٢) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٠٧.

(٣) أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري: المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤) الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٨٩.

(٥) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤١٤.

وفي اليوم السابق لشق الخليج يرسل الباشا مناديا يجوب أنحاء مدينة القاهرة. ومعه صبية يساعدونه بالتصفيق والهتاف بالقول (الله أكبر الله أكبر الله أكبر)، وبعد تجمع الناس يقرأ المنادي إعلان الباشا الذي يتضمن إغلاق جميع الحوانيت وعدم الاشتغال بأي عمل خلال فترة الاحتفال بوفاء النيل، على أن يتفرغ الجميع للاستعداد للحفل، ويحذر الباشا في هذا الإعلان من شرب الخمر تجنبًا للحماقات أثناء الاحتفال، وينذر من يخالف ذلك بضربه مائة عصا[1]. كما يرسل الباشا بخبر الاحتفال بوفاء النيل إلى مختلف الأقاليم[2]، عندئذ يبدأ السكان في تزيين المنازل بالمصابيح والزخارف[3]، وكان بعض السكان يوفر من أجل هذا الاحتفال مبلغًا من المال طوال العام لإنفاقه في فترة الاحتفال حتى يقال إن كل ما يربحه بائع أو صانع في العام يدخره لينفقه في هذا الأسبوع[4]. ويحتفل كل شخص في المدينة حسب قدرته وإمكانياته، لهذا يوجد من الناس من هم على السفن، ومنهم من هم على الخيول، ومنهم المحيط بشاطىء النيل. الكل يحتفل ويبتهج ويعبر عن فرحته بطريقته الخاصة[5].

ويبلغ عدد السفن في ذلك اليوم حدًا يغطي وجه النيل من قصر السبتيه وبولاق وقصر العيني ومصر القديمة وحتى قدم الندبي، ويبلغ ازدحام

(1) GALLIPOLI, BERNARDINO AMICO: OP. CIT, P. 202.

(٢) عراقي يوسف محمد: الوجود العثماني المملوكي في مصر في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٥، ص ٤٢٠.

(3) GALLIPOLI, BERNARDINO AMICO: OP. CIT, P. 202.

(٤) الحسين بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٩٩.

(5) GALLIPOLI, BERNARDINO AMICO: OP. CIT, P. 40.

السفن حذا يمكن المرء من اجتياز النيل من ضفته إلى الضفة الأخرى قافزا من سفينة إلى أخرى[1].

وكانت السفن المعدة للاحتفال مفروشة بالسجاد ومغطاة بخيام ذات ألوان زاهية ومضاءة بالعديد من المصابيح [2] المشكلة بأشكال مختلفة كأشكال المنازل أو السفن. وقد حصر الرحالة Monconys عدد المصابيح على إحدى السفن فوجد أنها مضاءة ومزينة بـ ٨٠٠ مصباح[3]. أما العقبة (سفينة الباشا) فقد كانت على هيئة مسرح متنقل تحيط بها المجاديف من كل جانب، وهي في غاية الزينة وبخاصة في المكان الذي يجلس فيه الباشا حيث يوجد السجاد والوسادات. وهناك أيضا خيمة ذات ألوان جميلة من الحرير وتستعمل كسقف للسفينة[4] وكان موكب الاحتفال يبدأ من الشارع الذي يسلكه الباشا من قلعة الجبل حتى بولاق، وهي مسيرة ساعتين، فيصبح هذا الشارع (بحرا زاخرا متلاطما من الناس) [5]. كما يزداد تجمع الناس أيضا عند موضع شق الخليج وبولاق وجزيرة الروضة، ويصبح شاطيء النيل في تلك المسافة ليس به موضع خال، فقد شغل كله بخيام وسرادقات الأعيان والمطابخ والمخازن قبيل الاحتفال بخمسة أو ستة أيام[6].

(1) IBID, P. 40.
(2) IBID, P. 40.
(3) MONCONYS, BALTHASAR: OP. CIT, PP 156 – 157.
(4) BREMOND, GABRIEL: VOYAGE EN EGYPTE 1643 – 1645, CAIRE 1974, P. 65.
(٣) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤١٦.
(6) BREMOND, GABRIEL: OP. CIT, P. 65.

ومن أفضل من وصف خروج الباشا لشق الخليج هو الرحالة أوليا جلبي، فقد أوضح بداية الاحتفال بسير الصوباشي[1] على رأس الموكب مع مائتين وخمسين من رجاله المسلحين بالنبابيت يخلون الطريق من الناس، يمر بعدهم على التوالي أئمة المساجد وخطباؤها، ورجال الطرق وعلماء المذاهب الأربعة، والقضاة والمفتون يرأسهم شيخ الإسلام المفتي الحنفي، وقاضي العسكر أفندي ونقيب الأشراف والجاويشية والمتفرقة والجراكسة والعزب والإنكشارية، وخدم الخيام والمائدة ورئيس الحجاب وأمراء مصر وأغوات الباشا وغيرهم، ثم أخيرًا موكب الباشا. وقد أورد أوليا جلبي بالتفصيل الدقيق عدد وهيئة كل جماعة وما تحمله من أعلام وسلاح[2].

يخرج الباشا من ديوان السلطان قلاوون بالقلعة فيركب جواده، ويصل إلى مقام السلطان سليم بميدان السراي، ويصلي هناك ركعتين محاطًا بالدعاء والثناء من العلماء والمشايخ، ثم يركب جواده ويجانبه السقاءون،

---

(٥) الصوباشي: هو قائد الشرطة، ويطلق عليه الوالي، ويسمى أيضا الزعيم، ويعين من قبل الباشا الذي كان له الحق في عزله. وكان هناك ثلاثة ولاة، ولحد للقاهرة، وثان لبولاق، والثالث لمصر القديمة، باعتبار أن بولاق ومصر القديمة ضاحيتان مستقلتان، لبعدهما عن القاهرة، ولكن عندما تم ضم هاتين الضاحيتين الأخيرتين للقاهرة إداريا عام ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م انتقل الإشراف الأمني عليهما إلى زعيم القاهرة الذي خضع بدوره لرئاسة وإشراف أغا الإنكشارية...

لمزيد من التفاصيل انظر: سحر على حنفي: مظاهر الانحراف الاجتماعي في القاهرة إبان العصر العثماني، مجلة المؤرخ المصري، العدد الثامن والعشرون، القاهرة ٢٠٠٥، ص ص ٤٢١ – ٤٢٢.

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ٤١٧ – ٤١٩.

؛ MONCONYS, BALTHASAR: OP. CIT, PP. 153 – 154.

ويسير خلفه السلحدار الذي يحمل سيف الباشا، وأربعة وعشرون من الخدم ومائتا رجل من خواص رجاله المدربين على الجياد ثم الكتخدا وأمين الصندوق وأفندي الديوان وتسير بعده فرقة الموسيقى ورجال المشاعل[1].

وعند خروج الباشا من القلعة[2]، يطلق سبعون أو ثمانون طلقة من المدافع تدوي في القاهرة، ثم ترتفع الأصوات بالتكبير، بدءًا بتكبير فرقة الإنكشارية ثلاث تكبيرات، ثم فرقة العزب ثلاث تكبيرات أيضا، ويستمر التكبير إلى أن يدخل الباشا بولاق محييا الناس المترصدين على جانبي الطريق. ويحضر الباشا بقصر السبتية مأدبة البيك القبطان، يتقبل منه هديته وهي خمسة أكياس نقدًا وخمسة جياد[3].

عندئذ ينزل الباشا إلى العقبة ومعه إمامه ومؤذنه وقاضي العسكر وبعض العلماء، فتبدأ المدافع المنصوبة على السفن المحيطة في إطلاق قذائفها، وتسير العقبة في النيل، ويسير خلفها عقبات أعيان القاهرة وأشرافها وتسمع في شتى الأرجاء أصوات المطربين والعازفين[1]، وتصل عقبة الباشا بعد مسيرة ثلاث ساعات إلى فم الخليج فترسوا على الشاطىء[5].

---

(٢) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤١٩.

(٣) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ١٥١.

٤ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: المصدر السابق، ص ٣١٠.

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ٤٢٠ – ٤٢١.

(٢) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ١٥١.

٤ عصمت محمد حسن: جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي، القاهرة ٢٠٠٣ ص ١٥٠.

(٣) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ص ١٥٠ – ١٥١.

ويقيم الباشا وليمة كبيرة للسناجق والجاويشية والمتفرقة والمجموعات الأخرى قبل شروق يوم شق الخليج، وبعد الوليمة يوزع قفاطين على ضباط الجيش والشرطة، ثم يستقل مع حاشيته السفن ويتجه إلى الخليج ليفتحه وسط دقات الطبول[1].

يجلس الباشا في السرادق بالقرب من الخليج بعد الشروق بساعة، ويجلس إلى جانبه كبار الموظفين، ويحضر القاضي الذي يكتب وثيقة تشهد بأن النهر بلغ الإرتفاع الكافي لشق الخليج، ليتم إرسال هذه الوثيقة إلى الأستانة [2]، ثم يقوم الباشا من مجلسه ومعه حاشيته الذين يسيرون أمامه وخلفه حاملين على أذرعهم الفئوس فيضرب الخليج ضربة واحدة بالفأس[3]، يتبعه كبار شخصيات حاشيته إلى أن يتخرب قسم من الجدار الذي يمنع وصول الماء[4]، وأحياناً يكتفي الباشا بمجرد إعطاء الإشارة بشق الخليج، عندئذ يأمر الصوباشي العمال بشق الخليج[5].

وتقع مهمة شق الخليج على عاتق للتُربية واليهود، وتعطي الحكومة كليهما أجرًا، ويضطر اليهود عندما يقع العمل على عاتقهم في يوم السبت

---

(٤) نفس المصدر السابق: ص ١٥١.

؛ عصمت محمد حسن: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(١) إدوارد وليم لين: المصدر السابق، ص ١٦٩.

(3) BREMOND, GABRIEL: OP. CIT, PP 62 – 63.

؛ إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، القاهرة ١٩٩١، ص ٨٩.

(٣) الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٩٩.

(5) MONCONYS, BALTHASAR: OP. CIT, P. 155.
SANDYS, GEORGE: OP. CIT, P. 39

إلى دفع مبلغ سخي للخلاص من إثم يجره عليهم إنتهاك حرمة يوم زاحمتهم بقيامهم بما تفرضه الحكومة عليهم [1].

وفي لحظة شق الخليج يرفع آلاف من العلماء والمشايخ أيديهم بالدعاء، ويركب الصوباشي زورقه المرسى فوق السد المقام من التراب في فم الخليج، فيسرع آلاف من العربان برفع تراب السد، فما أن يندفع النيل إلى الخليج حتى يصيح المشايخ قائلين (الفاتحة)، ويندفع الصوباشي بزورقه إلى القاهرة [2]، عندئذ تبدأ الأبواق في العزف، وتسمع طلقات المدافع والبنادق، والحركات المنتظمة لفرسان الخيالة [3]، وتذبح مائتا رأس من الغنم وخمسون بعيرًا على حافة النيل [4]، ويلقي الباشا آلافًا من قطع المديني في الخليج [5]، كما يلقي مدير قصر الباشا والمحتسب في النيل أيضا ألفي رأس من السكر، وثمانين حمل بعير من الخبز، وبضعة آلاف آقة من الفواكة [6]. وينتظر بعض أفراد الشعب من السوقة والمتسولين والعربان[7] هذا السخاء فينزلون إلى الخليج ويتشاجرون ويتنازعون على تقاسم ذلك كله في حين يغمرهم تيار المياه، ولأحيانًا يختفي هؤلاء الأشخاص في تيار المياه، حتى يظن أنهم قد غرقوا، ولكن بعد فترة يخرجون من الجانب الآخر على النهر[8]. كما يتواجد

---

(٥) إدوارد وليم لين: المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٦) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٢١.

(١) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ٢٩٢.

(٢) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٢١.

(5) WILD, JOHANN: VOYAGES EN EGYPTE 1606 – 1610, CAIRE 1973, PP. 127 – 128.

(٤) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٢١.

(7) MONCONYS, BALTHASAR: OP. CIT, P. 155.

(8) FORESIEN, JEAN PALERNE: OP. CIT, P. 27.

أيضا في نفس اللحظة عدد من السفن الصغيرة التي يتنافس قائدوها من أجل عبور الثغرة التي فتحت في الخليج، غير مبالين بسرعة وخطورة شلال المياه، مما يعرض الكثير منهم للغرق[1]. ويعلق على ذلك أحد علماء الحملة الفرنسية بقوله (هكذا يمكن القول بأنه لا تزال تقدم أضحيات بشرية إلى النيل كل عام)[2] وفي هذه اللحظة أيضا تقوم بعض الأمهات بإنزال الأطفال المرضى إلى الماء اعتقادا في شفائهم[3].

هذا في الوقت الذي يظل الصوباشي بسفينته ومعه أتباعه حتى يصل إلى نهاية المدينة، ثم يعود للاشتراك في احتفالات وفاء النيل بالروضة[4].

وإلى جانب قصر الباشا بالروضة هناك منزل من أهم المنازل التي تشترك في الاحتفال بهذا اليوم، وهو منزل قنصل فرنسا المطل على الخليج[5]. ويحتوى هذا المنزل على خمس عشرة نافذة تمتلىء جميعها بالفرنسيين الذين يحملون باقات الورود لإلقائها في المياه عندما تصل إليهم، ويبدأ القنصل في إلقاء الورود والعملات الفضية في المياه يتبعه باقي المدعوين، فيتجمع حول المنزل الكثير من العامة الذين يدعون للقنصل بالخير والبركة[6].

وعقب شق الخليج يخلع الباشا الخلع الفاخرة على بعض الأشخاص كالأغا والمحتسب ومدير قصر الباشا، وتستأنف العقبة سيرها في النيل، والباشا يحيي الواقفين على الشاطىء حتى يبلغ قصر المقياس فينزل إلى البر

(٧) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٨) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

(3) MONCONYS, BALTHASAR: OP. CIT, P. 155.
(4) COPPIN, JEAN: OP. CIT, P. 99.
(5) MORISON, ANTHOINE: OP. CIT, P. 118.
(6) COPPIN, JEAN: OP. CIT, PP. 100 – 101.

ومعه جنوده، ويقيمون صلاة الظهر، ويسجدون سجدة الشكر لقطع النيل، ثم تقام مأدبة الباشا لجميع الأعيان، وعقب تناول الطعام يستأذنون في الانصراف[٤].

ويقيم الباشا بقصر المقياس ثلاثة أيام، يبدأها بإرسال أغواته إلى أمراء مصر وأغوات البلوكات السبعة وأعيان الدولة ليدعوهم إلى مأدبة يقيمها لهم، وكل مدعو يعطي الضابط المرسل لدعوته مائة قرش نقدًا وقطعة من الجوخ وقطعة قماش. وينفق الباشا على هذه المأدبة مائة كيس. وبعد الانتهاء من الطعام ينعم الباشا على أهل المناصب بالخلع الفاخرة ويبقيهم في مناصبهم، كما أنهم يقدمون له كشفيات مناصبهم، وذلك لأن قطع النيل هو رأس السنة أو يمكن القول هو رأس السنة الضريبية. كما ينعم الباشا بخمسة أكياس مصرية على البلوكات السبعة، ثم يحصل كتخدا الباشا كشوف الأموال الخاصة بالباشا، ويوافق الباشا على حضور ولاتم أصحاب المناصب كالدفتردار وأمير الحج وقائمقام الوزير وأغوات الإنكشارية والعزب والمتفرقة. وفي اليوم الثالث من قطع السد يركب الباشا عقبته ويذهب إلى قصر السبتية، وما إن يصل إليه حتى تطلق آلاف المدافع ويكبر الناس ثلاث تكبيرات، عندئذ ينتهي الحفل ويتفرق الناس ويتجه الباشا إلى قصره بالقلعة بين صفوف متراصة من المتفرجين من كل الطبقات واقفين على جانبي الشارع لمشاهدة الوزير، فتستقبله النساء بالزغاريد، ويستقبله الرجال بالدعوات والألقاب المختلفة كقولهم (حفظك الله وسلمك الله يا عزيز مصر، ويا متولي مصر، ويا وكيل السلطان بمصر) ويسير بجانب الباشا رئيس السقائين، وبجانبه الآخر رئيس خدم الخيام، بيد كل منهما كيس مصري ينثر

(٤) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٢٥.

منه النقود على رؤوس الداعين للباشا، إلى جانب توزيع الصدقات على صبية الكتاتيب. وعندما يصل موكب الباشا إلى باب العزب بالقلعة يدخل منه، فتطلق مدافع القلعة، ثم يقيم الباشا في ديوان الغوري مأدبة عظيمة تكون آخر مأدبة خلال الاحتفال بقطع جسر النيل[1].

ويكتفي معظم الباشاوات بان ينتهي الاحتفال بعد ثلاثة أيام[2]، حتى لا يطول انقطاع الناس عن أعمالهم ويتأذوا بالمصاريف إذا استمر الاحتفال سبعة أيام[3]، أما قاطنوا الروضة ومصر القديمة أو المستأجرون للمنازل في هذه المنطقة فتستمر احتفالاتهم سبعة أيام[4].

ولا يسمع خلال الاحتفال إلا أنغام الموسيقى ودقات الطبول والزغاريد[5]. ويظهر الاحتفال بوضوح في الليل حيث تزين المنازل والسفن بالمصابيح والأشكال والتماثيل المضيئة[6]، وعلى ضفاف النيل يلعب العامة

---

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ص ٤٢٥ – ٤٢٨.

(2) SANDYS, GEORGE: OP. CIT, P. 39.
WILD, JOHANN: OP. CIT, P. 126

(١) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص ٤٢٦.

(4) MORISON, ANTHOINE:OP. CIT, P. 118.
؛ HARANT, CHRISTOPHE: OP. CIT, P. 235,
؛ BREMOND, GABRIEL: OP. CIT, P.67.
؛ إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٩٢، ص ٣٢.

(5) MORISON, ANTHOINE:OP. CIT, P. 118.
؛ VILLAMONT, LE SEIGNEUR: OP. CIT, P. 287.

(6) BREMOND, GABRIEL: OP. CIT, PP. 66 – 67.

الألعاب المختلفة ويتراقصون على الخيول[1]، ويستقبل الأمراء والأثرياء في منازلهم الزوار الذين يأتون لتهنئتهم بوفاء النيل والاحتفال معهم[2].

ولم يختلف كثيرًا الاحتفال بوفاء النيل بعد دخول الفرنسيين إلى مصر، فقد خرج نابليون يرافقه القادة الفرنسيون بثيابهم العسكرية، وأعضاء ديوان القاهرة، وكبار الشخصيات إلى المقياس، يرافقهم الحراس المحاملون للأسلحة، واصطفت العساكر الفرنساوية بين الروضة ومصر القديمة[3]، وزينت السفن بالأعلام وتجمع بعض أفراد الشعب بجوار الخليج كما جرت العادة.

وعزفت الموسيقى الفرنسية إلى جانب العربية مقطوعات مختلفة أثناء شق الخليج[4]، وألقى نابليون الكثير من قطع المديني والعملات الذهبية في النيل كما كان يفعل الباشا العثماني من قبل، كما أهدى في نفس اليوم الكثير من العباءات السوداء المبطنة بالفرو للشخصيات البارزة[5].

وعقب شق الخليج عاد نابليون وتوقف موكبه عند ميدان الأزبكية، ومن خلفه أفراد الشعب يتغنون بمدائح النبي، ويمجدون الجيش الفرنسي، ويلعنون البكوات المماليك[6]. ولم يشترك مع الفرنسيين في الاحتفال بوفاء

---

(٥) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ٢٩٢.

(2) BREMOND, GABRIEL: OP. CIT, P 67.

(٧) جوزيف ماري مواريه: مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة ١٩٨٤، ص ٦٠.

(١) ج. كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد اندراوس، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٠٦.

(٢) علماء الحملة الفرنسية: الجزء الثاني عشر، ص ١١٥.

(٣) نفس المصدر السابق: ص ص ١١٥، ١١٦.

النيل أثناء إقامة الحملة الفرنسية في مصر سوى النصارى والشوام والأروام والإفرنج، وقليل من الناس البطالين[1].

وكان الاختلاف الواضح بين الاحتفال بوفاء النيل في العصر العثماني وفترة الحملة الفرنسية في عدم اعتراض الفرنسيين في هذا الاحتفال على شرب الخمر وارتكاب المعاصي، لهذا لم ينكر أحد على أحد ما يفعله، بل يفعل كل إنسان ما يخطر بباله، مما أدى إلى عدم اشتراك معظم المصريين مع الفرنسيين في هذا الاحتفال مكتفين بمجرد رؤية شق الخليج[2].

وعلى أية حال كانت هناك نتائج إيجابية وسلبية لوفاء النيل:-

فأما الإيجابية فمنها:عقب شق الخليج تملأ الأحواض والخزانات في القاهرة بالمياه[3]، وتصبح الحركة والتنقل في شوارع القاهرة بالمراكب والزوارق الصغيرة[4]، ويستمر ذلك لمدة تتراوح ما بين ١٦ و ٢٠ يوما، ثم يبدأ النيل في الانحسار والعودة إلى منسوبه الطبيعي[5]، كما تصبح الملاحة

؛ عصمت محمد حسن: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٤) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٥١.

؛ HOURANI, ALBERT: THE SYRIANS IN EGYPT IN THE EIGHTEENTH AND NINETEENTH CENTURIES, COLLOQUE INTERNATIONAL SUR L'HISTOIRE DU CAIRE, P.118.

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، ص ١٥١.

(3) LICHTENSTEIN, H.L. VON: OP. CIT, P. 125.

؛ SHAW, STANFORD J.: OP. CIT, P. 50.

(4) MORISON ANTHOINE: OP., CIT, P. 113,

؛ BRWNE, W.G: OP. CIT, P.83.

(5) BLUNT. HENRY: OP. CIT, P. 236.

عقب الفيضان مأمونة العواقب في فرعي رشيد ودمياط وقناة الإسكندرية[1]، مما يؤدي إلى تنشيط التبادل التجاري حيث تستطيع السفن أن تحمل بضائعها من أوربا وآسيا إلى القاهرة مباشرة، دون الخوف من ضحالة المياه التي تمنع السفن الكبيرة من المرور في النيل[2]، وتدفع السفن الصغيرة إلى تخفيف حمولتها بدءًا من أواخر شهر سبتمبر[3].

كما أن مياه الفيضان تؤدي إلى القضاء على أعداد كبيرة من الفئران التي تعيش في جحور بالتربة الجافة، وهذه الفئران تتغذى على الحبوب وخصوصًا القمح، لهذا كان وصول مياه النيل إلى التربة له أثره الإيجابي في القضاء على الملايين من تلك الحيوانات القارضة، وتستكمل الصقور القضاء على البقية المتبقية منها[4].

أما النتائج السلبية فتتمثل في أن الاحتفال بوفاء النيل يؤدي إلى وفاة أكثر من خمسمائة شخص ؛ فإلى جانب من يتعرضون للغرق عند شق الخليج[5]، هناك أيضا الأصحاء الذين يتعرضون للعدوى من المصابين بمرض الطاعون، لاختلاط الجميع من أجل مشاهدة شق الخليج والاستشفاء بمياه النيل التي يعتقد المصريون في شفائها لجميع الأمراض [6]، وهكذا تظهر براءة النيل من اتهام البعض له أنه سبب من أسباب وباء الطاعون لتعفن الماء الراكد الذي يتركه في الحقول بعد انتهاء الفيضان[7]. أضف إلى

(1) SONNINI, C.S: OP. CIT, TOME I, P. 216.
(2) IBID, PP. 247 - 248.
(3) IRWIN, EYLES: OP. CIT, P. 360.
(١) جون أنتيس: المصدر السابق، ص ١١٤.
(5) LICHTENSTEIN, H. L VON: OP. CIT, P. 125.
(6) SANDYS, GEORGE: OP. CIT, PP. 41 – 42.
(٤) جون أنتيس: المصدر السابق، ص ١٠٧.

ذلك أن إنشغال المصريين بالاحتفال يؤدي إلى زيادة نسبة السرقات، لدرجة أدت إلى سرقة دحاس الباشا يوم شق الخليج عام ١٠١٠ هـ / ١٦٠١ م[١].

كما أن فيضان النيل على الحقول يؤدي إلى امتلاء تلك الحقول بملايين الأسماك والضفادع الصغيرة، وعند انحسار مياه النهر تتغذى بعض هذه الكائنات، غير أن الله سبحانه وتعالى أوجد لذلك علاجا طبيعيا، يتمثل في وصول أسراب لا حصر لها من الطيور المختلفة التي تلتهم مثل هذه الأسماك والضفادع[٢]، كما أن انسحاب مياه النيل من التربة عقب الفيضان، تؤدي إلى كثرة الديدان التي تتغذى على جذور النباتات وبخاصة نبات البرسيم، غير أن سقوط المطر يوم واحد يقضي على مثل هذه الديدان[٣].

وهكذا يتضح اهتمام سكان مصر جميعا من أغنياء وفقراء على اختلاف مشاربهم بتتبع أخبار الفيضان لأسباب اقتصادية في المقام الأول، فالباشا يتتبع زيادة منسوب النيل لجمع الضرائب واستكمال خزانة الدولة ودفع مرتبات الموظفين، وإلا يعتبر مقصرًا في مهمته التي جاء من أجلها، ويتم استدعاؤه إلى استانبول، كما يتشاءم منه المصريون ويطالبون السلطان بعزله من منصبه، والأمراء المماليك والملتزمين يتتبعون أيضا أخبار فيضان النيل لأداء ما عليهم من ضرائب، كما أن معرفة مقدار الفيضان بالنسبة لهم ينبيء بالحالة الاقتصادية لمصر في العام التالي، وما يمكن أن يحققوه من أرباح في هذا العام. أما عامة السكان فيتتبعون أخبار الفيضان لأنهم ملزمون

---

(٥) احمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري: المصدر السابق، ص ٧٥.

(٦ جون انتيس: المصدر السابق، ص ص ١٠٠ – ١٠١.

(١) نفس المصدر السابق، ص ١١٤.

بأداء ضرائب الدولة، كما أن انخفاض أو ارتفاع منسوب الفيضان له توابعه الاقتصادية التي قد تؤدي إلى المجاعة، والتي لا يدفع ثمنها على وجه الخصوص إلا الفقراء من الشعب. نضيف إلى ذلك اهتمام السوقة والمتسولين بهذا الاحتفال لاستفادتهم بما يمكن ان يحصلوا عليه من تلك البارات التي تنثر في النيل عند افتتاح السد من قبل الباشا أو كبار رجال الدولة، إلى جانب ما يمكن أن يصل إليهم من الأسمطة، وما ينعموا به من المرح ورقص الخيول والألعاب المختلفة والموسيقى والغناء على ضفتي النيل بين كل من بولاق ومصر القديمة والروضة. لهذا يتتبع الفيضان كافة عناصر السكان ووصول الفيضان إلى الستة عشر ذراعًا، له فرحة كبرى عند المصريين، يعبرون عنها من خلال احتفالهم فيما عرف على مر التاريخ باسم حفل وفاء النيل.

ولكن الاحتفال بوفاء النيل يظهر عدم الوعي الاقتصادي لدى بعض المصريين، فهم يدخرون كل ما ربحوه في العام السابق من أجل انفاقه في فترة الاحتفال بشق الخليج التي لا تستغرق أسبوعا على أكثر تقدير، سواء في تأجير المنازل أو السفن أو لإنفاقها خلال فترة الاحتفال دون الاهتمام بالاستفادة من استثمار هذه الأموال فيما هو أكثر نفعًا، بالإضافة إلى تعبير المصريين عن فرحتهم بوفاء النيل بما يخالف الشرع أحيانا كشرب الخمر.

أما اشتراك نابليون بونابرت وقادة الحملة الفرنسية في الاحتفال بوفاء النيل فقد كان محاولة منهم للتقرب من الشعب المصري، والتحضير لجمع الضرائب من المصريين، ولن كان قادة الجيش الفرنسي من خلال هذا الاحتفال حريصين على سلامتهم وسلامة جيشهم بحمل السلاح واصطفاف العسكر على أهبة الاستعداد لأي اعتداء على قادته.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق غير المنشورة:

محكمة الإسكندرية سجلا ٦٥، ٦٩.

محكمة الباب العالي سجلا ٢٠٥، ٣١٩.

محكمة دمياط سجل ٢٣٣.

ثانيًا: المصادر العربية المنشورة:

- **أحمد الدمرداش كتخدا عزبان:** الدرة المصانة في أخبار الكنانة في أخبار ما وقع بمصر في دولة المماليك من السناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومائة ألف، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٩.
- **أحمد باشا الجزار:** نظامنامة مصر، عن كيفية إعادة مصر إلى سلطة الدولة العثمانية عام ١٧٨٥، ضمن كتاب عبد الوهاب بكر: الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٢.
- **أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري:** أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٤.
- **عبد الرحمن بن حسن الجبرتي:** عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزآن الأول والثاني، القاهرة ١٩٩٧ – ١٩٩٨ م.

:مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٩٨.

- **عبد الغني بن إسماعيل النابلسي:** الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم أحمد عبد المجيد هريدي، القاهرة ١٩٨٦.
- **محمد بن أبي السرور الصديقي البكري:** التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ٢٠٠٥.
- **محمد بن أحمد بن إياس الحنفي:** بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦١.
- **مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع المرحوم حسن أغا عزبان الدمرداش:** تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة، تحقيق صلاح أحمد هريدي على، الطبعة الثانية ٢٠٠٢.

ثالثا: المصادر الأجنبية

- ABBE DE BINOS, M.: VOYAGE PAR L'ITALIE, EN EGYPTE AU MONT – LIBAN ET EN PALESTINE OU TERRE SAINTE, TOME SECOND, PARIS.
- BLUNT, HENRY: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNEES 1634, 1635, 1636, CAIRE 1974.
- BREMOND, GABRIEL: VOYAGE EN EGYPTE 1643 – 1645, CAIRE 1974.
- BROWNE, W. G: TRAVELS IN AFRICA, EGYPT AND SYRIA FROM THE YEAR 1792 TO 1798 , LONDON.
- COPPIN, JEAN: LES VOYAGES EN EGYPTE 1638 – 1646, CAIRE 1971.
- DE TOTT , BARON: MEMOIRES DU BARON DE TOTT, QUATRIEME PARTIE, PARIS 1784.
- DU MONR, LE SIEAR: NOUVEAU VOYAGE DU LEVANT, FRANCE 1699.
- FORESIEN , JEAN PALERNE: VOYAGE EN EGYPTE 1581 , CAIRE 1971.
- GALLIPOLI, BERNARDINO AMICO: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNEES 1597 – 1601 , CAIRE 1974.
- HARANT , CHRISTOPHE: VOYAGE EN EGYPTE 1598, CAIRE 1972.
- IRWIN , EYLES: A SERIES OF ADVENTURES IN THE COURSE OF A VOYAGE UP THE RED-SEA, ON THE COASTS OF ARABIA AND EGYPT , THE SECOND EDITION , LONDON.
- LICHTENSTEIN, H.L VON: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNEES 1587 – 1588, CAIRE 1972.
- MONCONYS, BALTHASAR: VOYAGE EN EGYPTE 1646 – 1647, CAIRE 1973.

- MORISON , ANTHOINE: LE VOYAGE EN EGYPTE 1697 , CAIRE 1976.
- SANDYS, GEORGE: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNEES 1611 ET 1612, CAIRE 1973.
- SAVARY , M: LETTERS ON EGYPT , VOL. I, SECOND EDITION , LONDON.
- SONNINI, C.S: VOYAGE DANS LA HAUTE ET BASSE EGYPTE , TOME PREMIER, II, III, PARIS.
- VERYARD, E: VOYAGES EN EGYPTE PENDANT LES ANNEES 1678 – 1701, CAIRE 1981.
- VILLAMONT , LE SEIGNEUR: VOYAGES EN EGYPTE DES ANNEES 1589 , 1590 , 1591 , CAIRE 1971.
- WIET, GASTON: MEMOIRES SUR L'EGYPTE ANNEE 1791 , LE CAIRE 1942.
- WILD, JOHANN: VOYAGES EN EGYPTE 1606 – 1610, CAIRE 1973.

رابعا: المصادر الأجنبية المعربة

- **إدوارد وليم لين:** المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلي طاهر نور، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٩٨.
- **الحسن بن محمد الوزان الزياتي:** ليو الأفريقي، وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الرياض ١٩٧٩.
- **أوليا جلبي:** سياحتنامة مصر، ترجمة محمد علي عوني، القاهرة ٢٠٠٥.
- **جوزيف بتسي (الحاج يوسف):** رحلة جوزيف بتسي (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة عبد الرحمن عبدالله الشيخ، القاهرة ١٩٩٥.
- **جوزيف ماري موارييه:** مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة ١٩٨٤.
- **جون أنتوس:** مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٧٠ – ١٧٨٢ م)، ترجمة سيد أحمد على الناصري، القاهرة ١٩٩٧.
- **شابرول:** دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٦.
- **صامويل برنار:** الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الثالث، الموازين والنقود، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٠.
- **علماء الحملة الفرنسية:** وصف مصر (مقياس النيل)، الجزء الثاني عشر، ترجمة منى زهير الشايب، القاهرة ٢٠٠٢

- وصف مصر (التاريخ الطبيعي)، الجزء الثالث والثلاثون، ترجمة منى زهير الشايب، القاهرة ٢٠٠٥.
- كارستن نيبور: رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ١٧٦١ – ١٧٦٧، الجزء الأول، رحلة إلى مصر ١٧٦١ – ١٧٦٢، ترجمة مصطفى ماهر، د. ت.
- لاليكاد ايجيبسيين: العدد السابع، ضمن صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ – ١٨٠١، المجلد الأول، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧١.

خامسًا: المراجع العربية والمعربة:

- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة د. ت.
- أحمد فؤاد متولي: قانون نامة مصر الذي أصدره السلطان القانوني لحكم مصر، د. ت.
- إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، القاهرة ١٩٩١.
- مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٩٢.
- أمين سامي: تقويم النيل، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٢٨.
- جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، الجزء الأول، القاهرة ١٨٨٩.
- ج كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، القاهرة ١٩٦٢.

- **سحر علي حنفي:** مظاهر الانحراف الاجتماعي في القاهرة إبان العصر العثماني، مجلة المؤرخ المصري، العدد الثامن والعشرون، القاهرة ٢٠٠٥.
- **سليم عرفات المبيض:** النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية والأجنبية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام ١٩٤٦، القاهرة ١٩٨٩.
- **شفيق غربال:** مصر عند مفرق الطرق (١٧٩٨ – ١٨٠١)، المقالة الأولى في ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية، كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامة في عهد الحملة الفرنسية، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، المجلد الرابع، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٦.
- **عارف العارف:** تاريخ القدس، القاهرة ١٩٥١.
- **عباس الطرابيلي:** خطط الطرابيلي، أحياء القاهرة المحروسة، القاهرة ٢٠٠٣.
- **عبد الرحمن فهمي:** النقود المتداولة أيام الجبرتي، ضمن بحوث عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث، القاهرة ١٩٧٦.
- **عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم:** دراسة في ضوابط قانون نامة مصر، ومدى تطبيقها مع النص الذي ترجمه د. خليل الساحلي أوغلو الدراسة والنص، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العددان الأول والثاني ١٩٩٠.

- **عراقي يوسف محمد:** الوجود العثماني المملوكي في مصر في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، الطبعة الأولـــى، القـــاهرة ١٩٨٥.
- **عصمت محمد حسن:** جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي، القاهرة ٢٠٠٣.
- **محمد مختار:** التوفيقات الإلهامية في مقارنـــة التـــواريخ الهجريـــة بالسنين الإفرنكية والقبطية، بيروت د. ت.
- **ميكل ونتر:** المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، القاهرة ٢٠٠١.

سادسًا: المراجع الأجنبية

- HANOTAUX , GABRIEL: HISTOIRE DE LA NATION EGYPTIENNE , TOME I, PARIS.
- HOURANI, ALBERT: THE SYRIANS IN EGYPT IN THE EIGHTEENTH AND NINETEENTH CENTURIES, COLLOQUE INTERNATIONAL SUR L'HISTOIRE DU CAIRE.
- SHAW, STANFORD J.: THE FINANCIAL AND ADMINSTRATIVE ORGANIZATION AND DEVELOPMENT OF OTTOMAN EGYPT 1517 – 1798, NEW JERSEY 1962.
- STRIPLING , GEORGE: THE OTTOMAN TURKS AND THE ARABS 1511 – 1574 , URBANA 1942.